

القلوب في القرآن والسنة: غمرة القلوب





الشيخ نشأت كمال

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 28/12/2022 ميلادي - 4/6/1444 هجري

الزيارات: 3372

القلوب في القرآن والسنة

غمرة القلوب

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون: 57 - 63].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون: 57]؛ أي: خائفون من عقابه؛ قال الحسن البصري رحمه الله: "المؤمن جَمَعَ إحسانًا وخشية، والمنافق جَمَعَ إساءة وأمنًا"، والخشية: الخوف، والإشفاق، يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [المؤمنون: 58]؛ أي: آيات القرآن، أو الآيات الموجودة في الأرض والسماء الدالة على قدرة الواحد الديَّان ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: 58]؛ يصدقون.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: 59] معه أحدًا في ذاته، أو في صفاته، أو في أفعاله، شركًا جليًّا، ولا خفيًّا.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ [المؤمنون: 60]؛ أي: يعملون ما عملوا من أعمال البر والطاعات.

﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: 60] خائفة ألَّا يُقبَل منهم ما أعطَوا من الصدقات، وما فعلوا من الطاعات، وألَّا يقع على الوجه اللائق، فيُؤخذوا به ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: 60]؛ أي: خوفهم؛ لأنهم إلى الله راجعون يوم القيامة، وهو يعلم ما يخفى عليهم.

وفيه تنبيه على الخاتمة؛ وفي صحيح البخاري: ((وإنما الأعمال بالخواتيم))، وأما المخلط، والمسرف على نفسه، فينبغي له أن يكون تحت خوف من أن ينفذ عليه الوعيد بتخليطه وإسرافه.

وقيل: وجلُ العارف من طاعته أكثر وجلًا من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تُطلَب بتصحيح الغرض.

وعن عائشة الصديقة رضي الله عنها أنها قالت: ((يا رسول الله، ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: 60] أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكن هم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، ويخافون ألَّا يُقبَل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات))؛ [أخرجه الترمذي].

وقال الحسن رحمه الله تعالى: "لقد أدركنا أقوامًا كانوا من حسناتهم أن تُرَدَّ أشفق منكم على سيئاتكم أن تُعذَّبوا عليها"، وفي رواية أخرى عنه: "عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرَدَّ عليهم".

وقال القرطبي رحمه الله تعالى: "لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعَّدهم عقب ذلك بذكر المؤمنين المسارعين في الخيرات، ووعدهم، وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم".

﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: 61]؛ أي: الموصوفون بالصفات المذكورة، ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [المؤمنون: 61]؛ أي: يرغبون في الطاعات أشد الرغبة، فيبادرونها، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها؛ كقوله تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ [آل عمران: 148]، وقيل: المعنى يسابقون من سابقهم إلى نيل المبرات، ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: 61]؛ أي: لأجلها فاعلون السبق، أو سابقون الناس إلى الطاعة، أو الثواب، أو الجنة.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [المؤمنون: 62] قدر طاقتها، يريد الله تعالى بهذه الجملة التحريض، والحث على ما وصف به الصالحين، وتسهيله على النفوس، وهذه الجملة ومثيلتها في آخر سورة (البقرة)، وفي سورة (الأنعام)، وفي سورة (الأعراف) ناسخٌ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف لا يُطاق، أو فيه مشقة شديدة، ومن ذلك من لم يستطع القيام في الصلاة؛ فليصلِّ قاعدًا، ومن لم يستطع الصوم في رمضان لسفر، أو مرض، ونحو ذلك، فليفطر، ولْيقضِ بعد التمكن من القضاء.

﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ ﴾ [المؤمنون: 62]؛ أي: اللوح المحفوظ، أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة لذي الجلال والإكرام، وأضافه إلى نفسه؛ لأن الملائكة كتبت فيه أعمال العباد بأمره.

﴿ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: 62]؛ أي: بالصدق، لا يوجد فيه ما يخالف الواقع، وفي هذا تهديد، وتأييس من الحيف والظلم.

﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: 62] بزيادة عقاب على ما يستحقون، ولا بنقصان ثواب على عمل صالح عملوه في دنياهم.

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون: 63]، ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قلوب كفار قريش، ويعم جميع الكافرين، ﴿ فِي غَمْرَةٍ ﴾ في حيرة وعماية؛ لأنها مغطاة بغطاء الجهل والكفر والعناد.

ومثله قوله: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ [الأنعام: 93]؛ يعني شدائده، من غمره الماء: إذا غشِيَهُ وغطاه.

ومثله: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ [المؤمنون: 54]، والغمرة هنا مراد بها: الحيرة، والغفلة، والضلالة، والجهالة، والغمرة في الأصل: ما يغمرك ويعلوك من ماء، ونحوه، فهي مستعارة لِما في قلوبهم من كفر ونحوه، ومنه: الغِمر وهو الحقد؛ لأنه يغطي القلب، وهو بكسر الغين، وبفتحها: الماء الكثير؛ لأنه يغطي الأرض، وبضم الغين لمن لم يجرب الأمور، أي: فيه غباء أو غباوة، ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾؛ أي: إلى انقضاء آجالهم بالقتل، أو بالموت، فهو تهديد، ووعيد، والمعنى: اترك يا محمد هؤلاء المعاندين يتحيرون، ويترددون في كفرهم، وطغيانهم إلى انقضاء آجالهم.

ومثله قوله: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات: 10، 11]؛ أي: في غفلة، وعمًى، وجهالة مطبقة، ﴿ سَاهُونَ ﴾؛ غافلون لاهون عن أمر الآخرة، والغمرة: ما ستر الشيء، وغطاه.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ﴾ [المؤمنون: 63]؛ أي: للكفار أعمال خبيثة من المعاصي، ﴿ مِنْ دُونِ ذَلِكَ ﴾ [المؤمنون: 63]؛ أي: الأعمال الخبيثة التي طُبعوا عليها أهون من الشرك الذي جُبلوا عليه، وهم به متمسكون، أو المعنى: متجاوزة لِما وصفوا به.

﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون: 63]؛ أي: لتلك الأعمال الخبيثة يعملون عليها مقيمون لا يتركونها حتى يأخذهم الله بالعذاب، وقيل: المعنى لا بد أن يعملوها، ليدخلوا النار بسببها؛ لأنها مُقدَّرة عليهم؛ لِما سبق لهم في الأزل من الشقاوة في الآخرة.
